الفنان بريشته

عارف الريس... اللوحة صوت الفنان

تاريخ النشر: 29/02/2016

د.عمران القيسي

بين البلاغة الفنية والاعتيادية التصويرية مسافة من الوعي بالحاجة التوصيلية للفن التشكيلي الذي يسعى إلى تأسيسه الفنان. لكن عند واحد بمستوى عارف الريس، الفنان اللبناني المخضرم تصير الصورة بيانه المتحرك، لأن موضوعاته العديدة أشارت إلى مظلة واسعة تناول فيها كل شيء من السياسي إلى الاجتماعي، ومن الذاتي إلى الموضوعي. طوال حياته التي عاشها فناناً تشكيلياً ناضجاً ومتنوعاً، كان عارف الريس هو الباحث أبداً عن موضوعاته بل، هو ذلك المهاجر الشاب في بلاد السنغال الإفريقية، حيث كان يستطيع أن ينام قرب نهر «الكوزمونز» متآلفاً مع التماسيح، وسكان الغابات، ليرسم مفردات بيئتهم وإيقاعات «التام تام» الراقصة تحت انعكاسات النيران الموقدة، إنه العاشق الغريب للحرية، بل الثائر أبداً على كل ما هو رتيب ومكرر.
من هنا سمّي عارف الريس، بقطب الفن اللبناني الثاني، مقابل القطب الأول في ستينات القرن العشرين بول غيراغوسيان، فإذا كان غيراغوسيان يمثل (المتحرك في الثابت) نظراً لكون لوحته تتكرر بالإيقاع ذاته عبر القامات البشرية، فإن عارف الريس مثل (الثابت في المتحرك) لأن التنوع الذي حفلت به لوحته كان الإشارة على ثبات إيقاعه، وشخصيته التشكيلية أيضاً.

من هنا تشكل قراءة لوحة عارف الريس الذي ملأ في حياته المديدة، وعلى مدى ستين عاماً العالم الفني اللبناني، بقدر من الغنى النادر، ومن السيطرة الشاملة على كافة المواضيع الفكرية والسياسية والاجتماعية والجمالية.

فمن خلال نمو فكرة حركة التحرر الوطني في العالم الثالث، رسم عارف الريس مواضيع متكاملة تحت عنوان «رؤى من العالم الثالث»، وقد تناول ثورات العالم الثالث، ابتداءً من ظاهرة (جيفارا) في أمريكا اللاتينية إلى اغتيال (لومو مبا) في إفريقيا وصولاً إلى حالات الكفاح الفلسطينية والصراع ضد الصهاينة.
وتساءل ذات يوم، وهو يرصد الحركة السياسية في وطنه لبنان قائلاً: «مع من وضد من؟» كان يبحث عن جواب مقنع، لأنه غير مقتنع بأي شيء، الأمر الذي دفع بسياسي ومفكر كبير بمستوى المرحوم (كمال جنبلاط) لأن يصدر بياناً فكرياً مقابل بيان الريس التشكيلي.
كان منزله ومحترفه في مدينة (عاليه) الجبلية بلبنان جميلاً وجزءاً من ذوق امرأة حساسة هي والدته التي كانت تعتني بترتيب الورود وزراعة أنواعها، لذلك رسم معارض متكاملة أسماها عوالم الورود وقد أثارت نقاشاً معمقاً بين النقاد، ما بين منتقد ومعجب.
فجأة يحصل زلزال الحرب الأهلية في لبنان، تبدأ المذبحة، تحرق بيوت الفقراء، ويهجّر كل الناس تهجيراً طائفياً على أيدي المسلحين، ويرسم عارف الريس ذلك الواقع بأسلوب دموي رهيب، الأمر الذي دفع بالمرحوم كمال جنبلاط وهو القائد السياسي الكبير، لأن يطلب مني بالذات جمع رسوم عارف الريس عن الحرب اللبنانية وطبعها في كتاب مستقل مع دراستها دراسة فنية وسياسية، كان ذلك عام 1977، وكانت الحرائق تعم الوطن اللبناني كله. لكن بعد الحرب وحين تنبه اللبنانيون إلى خطورة اللعبة التي مارسوها ضد أنفسهم، ارتدّ عارف الريس إلى إنسانه، وبدأ يرسم البشر المهزومين، وفي المقدمة ذاته، كان منكسراً، بدأ مرحلتين من النحت والرسم معاً.
في النحت بدأ مع الحجر الأبيض ينحت أشكالاً تحاول أن تنطوي على ذاتها وتختبئ تحت جلدها، أنها مخلوقات مرتدة، بل هي أشكال آسفة على وجودها الخاطئ. أما في الرسم فقد دخل مرحلة الكولاج وهي مرحلة استعمل فيها الصور الفوتوغرافية للناس الذين عرفهم، إنها الصورة المحايدة التي لا تشي بعمق الشخصية، لكن الشكل المباشر للإنسان يخدع ذاته والآخرين. لهذا كان يعتبر هذه المرحلة تساوي عملية التطهير النفسي، أو النقاء التعبيري بعد كل هذا العمر الذي مارس فيه زوراً عملية رصد العالم الخارجي وهو الملوث بأثامه.
عارف الريس الفنان الذي رسم صورته الذاتية متحولاً مع كل التحولات التي ضربت العالم، هو ذاته النحات الذي نظر إلى القامات (الفينيقية) المعروفة التي استخدمها النحات الإيطالي (جياكوميتي) عبر أشخاصه ورموزه الشبحية الطويلة، لذلك أرسل إلى نيويورك منحوتته العملاقة التي أسماها البحّار (الفينيقي)، وهي في الواقع نحت ذاتي لقامة عارف الريس. أما التمثال التجريدي الذي نحته في (ليدز) في لندن، فإنه المنطلق لبداية مرحلته اللاحقة التي طورها في مدينة جدة السعودية وعبر منحوتته العملاقة التي حملت لفظ الجلالة.
لقد قرّر أن يرسم وجهه على أكثر من مسطح تصويري، فكان بذلك أول فنان لبناني يجري تمارينه التطبيقية على ذاته.
إن دراسة رسوماته لذاته سوف تبين بأن هذا الفنان كان يصر على قدر من الطهرانية، وهي مسحة يمنحها لوجهه دائماً، وهنا يقلب الباطن إلى ظاهر، ويبرز ما هو مخفي تحت قناع وجهه، إنه الفنان الذي ما برح يعود باتجاه طفولته وشبابه، لأن تلك المرحلة كانت مرحلة الخيار القلق لديه. فهو ومنذ الأربعينات حين هاجر إلى (السنغال) مع والده (نجيب الريس) لم يتصرف مثل أي مهاجر لبناني يسعى للثراء، بل كان جزءاً من أولئك البشر الفطريين العائشين على الصيد والبساطة، لهذا غادر السنغال باتجاه باريس، حيث سيبدأ بدراسة (البانتوميم) أي الرقص الإيقاعي مع (بيجار). كان يحلم أن يصير راقصاً، لكن الضوابط التي امتازت بها عائلته الجبلية أرجعته إلى التصوير والرسم، فيتصل آنذاك بأقطاب الحركة الفنية، أمثال قيصر الجميل ومصطفى فروخ وعمر الانسي.

يملأ العالم الفني التشكيلي حركة وإبداعاً. ويتقدم كقطب متحرك تدخل أعماله ضمن مجموعة وزارة التربية والفنون الجميلة اللبنانية، وهي مجموعة اهتمّ بها عدد من الرؤساء اللبنانيين أمثال كميل شمعون وشارل حلو والياس الهراوي الذي منحه وسام الأرز من رتبة فارس قبل رحيله بعام.

عارف الريس في كل فنه عبارة عن لوحة ذاتية، وفي كل لوحة نسمع صوت عارف، وضحكته الساخرة من العالم كله، لذلك فإن الصمت بعد عارف هو صمت زائف وغير طبيعي، فهو سيبقى القطب الذي طبع حركة التشكيل اللبناني بطابعه الذاتي العميق.

omrankaissy@gmail.com